## الفصل الأول

# منظر علم الاجتماع الأمريكى

**أولا :** عمل أكاديمى مميز ·

**ثانيا :** تطور أعمال بارسونز ·

**ثالثا :** علم الاجتماع الأمريكى فيما بين الحربين ·

**رابعا :** فى مواجهة تيار علم الاجتماع الأمريكى ·

**خامسا :** الاسس الابستومولوجية لعلم الاجتماع ·

**سادسا :** مشكلة الموضوعية فى علم الاجتماع ·

# منظر علم الاجتماع الأمريكى

فى اهدائه لكتاب النسق الاجتماعى لزوجته وصف تالكوت بارسونز نفسه بانه « مريض بالتنظير » incurable theorist · والحقيقة انه من الصعب أن نجد أفضل من هاتين الكلمتين لوصف هذا الرجل والدورالذى لعبه فى علم الاجتماع الامريكى خلال الأربعين سنة الماضية · فتالكوت بارسونز يشغل مكانا خاصا ومرموقا بين علماء الاجتماع الأمريكيين · فحتى ظهوره على مسرح العلم ، كانت النزعة الامبيريقية empiricism تسيطر على علم الاجتماع الأمريكى ، وكان هذا العلم يواجه خطر الاغراق فى الدراسات المحلية المفصلة · ولقد جاء بارسونز بثورة نظرية · لقد وجه كل اعماله تجاه تحقيق هدف واحد هو : تطوير اطار نظرى تصورى من أجل أن يحتل علم الاجتماع مكانة علمية حقيقية ، وأن يربطه فى ذات الوقت ربطا منطقيا بالعلوم الاجتماعية الأخرى · ولقد أضفى هذا الهدف المحدد على كتابات بارسونز ضربا من الوحدة أو الترابط ، الذى يظهر للوهلة الأولى أنه غير موجود فى أعماله ·

وياله من تناقض عجيب أن يظهر من داخل النزعة الامبيريقية المسيطرة على علم الاجتماع الامريكى أكثر المنظرين تجريدا فى العلوم الاجتماعية المعاصرة · ولذلك فان بارسونز لايعتبر ـ بأى مقياس ـ نموذجا لعلم الاجتماع الامريكى · فمن خلال اتجاهه النظرى الواضح ، ومستوى التعميم الذى يكتب من خلاله ، واللغة الصعبة التى يستخدمها ، استطاع بارسونز أن يسبح ضد تيار علم الاجتماع الامريكى برمته ، بل انه هاجمه وأدانه باستمرار · ولقد قوبلت أعماله بمعارضة شديدة ، ونقد لاذع بل ومقاومة مستمرة فى دوائر علم الاجتماع الامريكى ·

ومع ذلك فاننا نجد ـ فى نفس الوقت ـ أن النظرية التى قدمها بارسونز نظرية وثيقة الصلة بأمريكا وبعلم الاجتماع الأمريكى · فقد قدم المجتمع الأمريكى لبارسونز مادة أعمل فيها فكره ، بل انه اعتبر

المجتمع الأمريكى معمل أبحـاثه الرئيسى الى درجة أن بعض نقاد نظرية بارسونز يذهبون الى أنها لا تعـدو أن تكون صياغة زائفة للأيديولوجة الأمريكية • وفضلاً عن هذا فان بارسونز قـد أثر فى أجيـال عديدة من علماء الاجتمـاع الامريكيين ، حيث نجح أكثر من أى شخص آخـر فى تأسس مدرسـة فكرية ومن بين الذين تأثروا به عـدد كبير من العلماء المرموقين فى علم الاجتماع الامريكى المعاصر من أمثال روبرت ميرتون ، وروبين ويليـامز ، ونيـل سملسـر ، وادوارد شيلز ، وروبرت بيـلاه وآخـرون •

ولقـد أثارت النظرية(*) التى قدمها بارسونز ضربا من التناقض • فهى تتعلق بعلم الاجتماع الامريكى ، ولكنها ظلت لفترة طويلة تمثل جسما غريبا داخله • ولقد تأثر بها علماء كثيرون ، فى نفس الوقت الذى تعرضت فيه لنقد شديد • وظهرت هذه النظرية فى أعلى مستوى ممكن من التجريد، ومع ذلك فقد اتهمت بأنها تعكس المجتمع الأمريكى وأيديولوجية •

ولكى نفهم لماذا أثارت أعمال بارسونز كل هـذه الدهشة ، ولماذا هى أعمـال غير مفهـومة ومتهمة حتى داخـل الولايات المتحدة نفسها ، خاصة فى بداية ظهورها ، لـكى نفهم كل هـذا من الضرورى أن نتعرف على المناخ السائد فى علم الاجتماع الأمريكى فيما بين الحربين • وبهذا نكون اكثر قـدرة على أن نفهم لمـاذا يعتبر فكر بارسونز فكرا شـجاعا ومبـدعا • ولـكن لنتعرف فى البداية على بارسونز نفسـه وعلى عمله الاكاديمى والمراحل التى تطورت فيها أعماله(١) •

---

(*) سوف نترجم كلمة Sociology of Parsons بنظرية بارسونز ، حيث لا يفضل داثما استخدام لفظ « علم الاجتماع البارسونزى » أو « علم الاجتماع للفيبرى » أو للدوركايمى من حيث أن هذا يربط العلم بافراد ، فضلا عن أن اللفظ الانجليزى ذاته يعنى نظرية • فعندما نقول Sociology of Parsons فاننا نعنى نظرية ومنهج بارسونز فى علم الاجتماع •
المترجمان •

## اولا : عمـل اكاديمى مميز

ولد بارسونز فى عام ١٩٠٢ فى «كلورادو سبرنجز» Colorado Springs فى ولاية كلورادو · وكان والده يعمل موظفا فى الكنيسة الشعبية ولعب دورا نشيطا فى الحملة البروتستنتية للاصلاح الاجتمـاعى والتى عرفت « بحركة الانجيل الاجتماعيـة » The Social Gospel Movement ولقـد قام بتدريس اللغة الانجليزية فى كليـة كلورادو حيث أصبح عميدا لهـا قبل أن يعين فى النهاية رئيسـا لكلية ماريتا Marietta College فى اوهايو · وهكذا نشـأ بارسونز فى جو بروتستنتى ، فى وسـط التراث الاصلاحى البيوريتانى فى منطقة وسط غرب أمريكا فى الربع الأول من هذا القرن · وتأثر بارسونز فى هـذا الوقت بالمناخ الثقافى الصـارم ذى الاهتمامات الاجتماعية الذى كان يميز الكليات الامريكية الصغيرة فى هذه الفترة ·

والتحق بارسونز فى الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٢٤ بكليـة أمهرست Amherst College ، حيث اهتم فى البداية بالبيولوجيا والفلسفة ، هادفا من وراء ذلك اما الى اجراء دراسات عليا فى البيولوجيا ، أو التخصص فى الطب مقتفيا أثر أحد اخوته الكبـار · ولكنه بدأ فى عامه الثالث فى كليـة أمهرست يهتم بالعلوم الاجتمـاعية ، وقرر فى النهـاية أن يكمل دراساته العليـا فى علم الاجتماع · ولقـد اعترف بارسونز بنفسه أن نزعة الاصـلاح الاجتماعى عنـد والده ترتبط بالوجهة التى أخـذها فى حياته : فقد أعده الجو الأسرى لـكى ينجذب الى أعمال الاقتصاديين من محللى النظم institutionalist economists ، الذين حاولوا التحرر من الاطار الضيق لعلم الاقتصاد الكلاسيكى ليدرسوا الجوانب النظاميـة للظواهر الاقتصادية وعلاقتها بالبناء الاجتمـاعى الأوسع · والحقيقة أن الجذور الأولى لاشتغال بارسونز بعلم الاجتماع توضح الارتباط الطويل بين علم الاجتماع الأمريكى ونزعة الاصلاح الاجتماعى البروتستنتية ·

- ومع ذلك فان بارسونز لم ينجذب كثيرا تجـاه البرامج التى تقدمها الجامعات الامريكية فى دراسة علم الاجتماع ، وهى برامج تهتم اهتماما مفرطا بالجانب الامبيريقى · ولقـد أحس بارسونز بأنه أكثر انجـذابا

للجامعات الأوربية ، ولذلك فقد اغتنم ـ بعد حصوله على الليسانس ـ فرصة مساعدة مالية من أحد أعمامه ليقضى عاما فى مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وهناكدرس على عالمى الاجتماع هوبهارس وجنزبرح ، والمؤرخ تاونى ، والمفكر السياسى لاسكى ، وبصفة خاصة على عالم الانثروبولوجيا مالينوفسكى الذى مارس عليه تأثيرا ملحوظا · وحصل بارسونز فى نهاية هذا العام فى لندن على منحة للدراسة فى جامعة هايدلبرج Heidelberg (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) حيث ذهب الى هناك بدون غرض محدد اللهم الا الاستفادة من الجو الثقافى لاحدى الجامعات الألمانية ، التى حظيت بشهرة وتأثير بالغين فى الدوائر الأكاديمية الأمريكية · وفى المانيا تأكد ارتباطه بالاشتغال بالعلوم الاجتماعية ، تحت تأثير قوى لرجل كانت مكانته تزداد ارتفاعا فى المانيا : هو ماكس فيبر · كان قد مر على وفاة فيبر خمسة اعوام عندما قدم بارسونز الى هايدلبرج ، ولكن وجوده كان مايزال محسوسا · ولقد عضدت أرملته ـ ماريان فيبر ـ من هذا الاحساس عن طريق عقد صالون ثقافى مساء كل أحد ، كان بارسونز الشاب يحرص على حضوره باستمرار · ووجد بارسونز فى أعمال ماكس فيبر عناصر الاطار التحليلى الذى بدا له أن علم الاجتماع يفتقد اليه ؛ تفسير للدور التاريخى للمذهب البروتستنتى مع مقارنته بالديانات الأخرى ، وتفسير للرأسمالية المعاصرة ، التى أصبحت الولايات المتحدة نموذجا لها ·

وفى كلية أمهرست لفت علماء الاقتصاد الذين يهتمون بتحليل النظم بارسونز الى تعقد العلاقات بين الأبنية الاقتصادية والأبنية الاجتماعية السياسية · ولقد أحيت فيه قراءته لماكس فيبر ـ الذى وجد فى أعماله توضيحا لنفس المشكلات مع ربطها بمنظورات تاريخية أشمل ـ أحيت فيه اهتمامه بدراسة النظم الاقتصادية · ولذلك فعند كتابته لرسالته للدكتوراه فى جامعة هايدلبرج ، اختار بارسونز ان يجرى تحليلا مقارنا عن فكرة الرأسمالية كنظام اقتصادى اجتماعى فى كتابات كارل ماركس ، وفيرنر زمبارت وماكس فيبر · ولم تنشر هذه الرسالة أبدا ولكن بارسونز طور منها أول مقال له ، الذى ظهر فى الولايات المتحدة فى « مجلة الاقتصاد السياسى »(٢) ·

وبعد عودته الى الولايات المتحـدة قضى بارسونز عاما فى كليـة أمهرست كمعيـد فى الاقتصاد · وفى عـام ١٩٢٧ انتقل الى جامعـة هارفارد التى مايزال يشتغل فيهـا بالتدريس والبحث (وقت تأليف هـذا الكتاب) · ويعتبر استمرار بارسونز فى جامعة هارفارد شيئا غير عادى اذا قورن بغالبيـة الأكاديميين الأمريكيين الذين يتحركون بسرعة من جامعة الى أخـرى · ومع ذلك فان فرصته هناك لم تكن تشجع على الاستمرار ؛ فقـد كان عليه أن ينتظر سنوات عديدة قبـل أن يشغل منصب الأستاذية ويحصل على وظيفة ثابتة ·

لقـد ذهب الى هارفارد كمعيـد فى قسم الاقتصـاد ، وهى وظيفة ظل يشغلها من عـام ١٩٢٧ الى عـام ١٩٣١ · وكما أوضح بنفسه لقد كانت رسالته للدكتوراه التى حصل عليهـا من هايدلبرج ـ على خـلاف الشهادات الامريكيـة ـ لا تقع فى مجـال فرع معين من فروع العـلوم الاجتماعية ، مما سمح له أن يدرس الاقتصاد والاجتماع على حد سواء · وفى خلال هـذه الفتـرة ترجم بارسونز الى الانجليزية كتاب ماكس فيبر « الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية » : كما أنه انتهز فرصة وجوده بين علمـاء الاقتصاد لينمى معرفتـه فى الاقتصاد تحت توجيـه بعض المدرسين من أمثال تاوسينج Taussing وكارفر Carver وادوين جاى Edwin Gay وجوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter .

وفى عام ١٩٣١ انتقل بارسونز الى قسم الاجتمـاع ، الذى أنشأه بيترم سوروكن · وظـل يحمل لقب معيـد ، باقيـا بذلك فى نهـاية السلم الاكاديمى فى هارفارد · ولم يعين فى وظيفة استاذ مساعد الا فى عـام ١٩٣٦ ، ولم يحصل على درجة استاذ مشارك الا فى عام ١٩٣٩ ـ بعـد عامين من نشر كتابه الهام « بناء الفعل الاجتماعى » ·

ولم يتأثر عمل بارسونز فى الجامعة بالحرب ـ على عكس الكثيرين من الاكاديميين فى هارفارد والجامعات الأمريكيـة الأخـرى ، الـذين استدعوا للخـدمة أو جندوا فى الوظائف الحكوميـة · ومع ذلك فقـد

اشتغل بارسونز بالتدريس فى « مدرسة الادارة لما وراء البحار » School for overseas administration وعمل كمستشار للادارة الاقتصادية الخارجية ، وشارك كمستشار فى وضع السياسات التى يجب أن تتخذ تجاه المانيا فيما بعد الحرب ٠

وفكر بارسونز فى عام ١٩٤٤ جديا فى أن يترك جامعة هارفارد ٠ ومن الأسباب التى جعلته يظل هناك انه عرض عليه منصب رئيس قسم الاجتماع ٠ وأصبح بارسونز بهذا المنصب الجديد فى قلب حركة هامة لاعادة تنظيم تدريس العلوم الاجتماعية ٠ فقد أنشأ بالاشتراك مع عالم النفس الاجتماعى جوردون البورت G. Allport ٠ وعالم النفس الاكلينيكى هنرى ميورى H. Murray وعالم الأنثروبولوجيا كلايد كلاكهون G. Kluckhohn ، وعالمى الاجتماع جورج هومانز G. Homans وصموئيل ستوفر S. Stouffer قسم العلاقات الاجتماعية الذى يهدف الى اعادة تنظيم تدريس العلوم الاجتماعية وخلق نوع من التكامل فى نطاق بناء متكامل الفروع(٣) وأسس قسم العلاقات الاجتماعية الجديد فى عام ١٩٤٦ وأصبح بارسونز رئيسه حتى عام ١٩٥٦ ٠ ومن المثير أن يفكر بارسونز فى أن يحقق داخل المؤسسات الأكاديمية نوعا من الوحدة بين العلوم الاجتماعية التى تكون اللب الاساسى لمشروعه النظرى كما سنرى ٠ والمحقق أن هناك نوعا من التطابق بين اهتمامات بارسونز النظرية وبين نشاطه كمدرس وكمدير وهو جهد لم ينل حقه من الاعتراف والتقدير ٠

ولقد أضاف بارسونز الى واجباته الاكاديمية المثقلة واجبات أخرى خارج الجامعة ٠ فقد اختير رئيسا للجمعية السوسيولوجية الشرقية Eastern Sociological Society لعام ١٩٤٢ ٠ وفى عام ١٩٤٩ تم انتخابه رئيسا للاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع American Sociological Association وهو وقت كان الاتحاد يتوسع فى نشاطه بسرعة ويحتاج من رئيسه أن يكرس له جزءا كبيرا من وقته ٠ ومنذ هذا التاريخ وهو يمارس بنشاط

دائم أدوارا مختلفة فى الاتحاد الأمريكى لعلم الاجتماع · ولقد كان أول رئيس تحرير لمجلة The American Sociologist الصادرة عن الاتحاد والتى تعالج الأمور التى تهم مهنة علم الاجتماع ·

وكان لبارسونز أيضا دور نشيط فى الاتحاد الأمريكى لأساتذة الجامعات American Association of University Professors وخاصة فى الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم التى رأسها فى عام ١٩٦٧ · وكان أول متخصص فى العلوم الاجتماعية يشغل هذا المنصب · وتنشر هذه الأكاديمية مجلة Daedalus التى نشر فيها بارسونز العديد من مقالاته الهامة ·

وأخيرا كان بارسونز أول عالم اجتماع أمريكى يتصل بعلم الاجتماع السوفيتى · فقد كان أول عالم يزور الاتحاد السوفيتى عام ١٩٦٤ بدعوة من الأكاديمية السوفيتية للعلوم ليلقى مجموعة من المحاضرات عن علم الاجتماع الأمريكى(٤) ·

## ثانيا : تطور أعمال بارسونز

لم يمنع هذا العمل الجامعى المتواصل بارسونز من أن ينشر عددا كبيرا من الكتب والمقالات · لقد كرس كل حياته لأعماله العلمية ، وسوف نستعرضها هنا بسرعة قبل أن ندرسها بالتفصيل فى الفصول التالية ·

يمكننا أن نميز ـ دون كثير من التبسيط ـ بين ثلاث مراحل فى تطور أعمال بارسونز وفكرة · **فى المرحلة الأولى** جمع بارسونز الموضوعات الاساسية لما أسماه بنظرية الفعل الاجتماعى من أعمال العديد من رواد علم الاجتماع المعاصر ، وخاصة ماكس فيبر ودوركايم وباريتو · وانشغل بارسونز فى **المرحلة الثانية** فى تمحيص نظرية الفعل الاجتماعى تمحيصا منهجيا من خلال توضيح أسسها المنطقية والعلمية ، وتوسيعها لتصبح نظرية عامة للسلوك البشرى · **وفى المرحلة الثالثة** حاول بارسونز أن يطبق هذه النظرية العامة على العلوم الاجتماعية

المختلفة : علم الاقتصاد وعلم النفس وعلم السياسة · ولقد أدى به ذلك الى أن يعدل ـ أو أن يوسع ـ من نظريته العامة ويضفى عليها طابعا تطوريا · وقد أدى به هذا الى أن يعود ـ بطريقة غامضة ـ الى المخططات التاريخية التى وضعها كونت وسبنسر وسروكن ·

ولنتحدث الآن بشىء من التفصيل عن كل مرحلة من هذه المراحل · اثمرت المرحلة الأولى كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » الذى عمل فيه بارسونز لسنوات عديدة · ومن المعروف أن تصميم هذا الكتاب قد أخذ شكل التطور التدريجى لمؤلفه · فقد بدأ العمل فيه فى هايدلبرج عندما اكتشف أعمال ماكس فيبر · فقد تعرف هناك لأول مرة على فكرة الفعل الاجتماعى كما استخدمها ماكس فيبر ، وأدرك أن هذه الفكرة يجب أن تكون رابطة نظرية بين علم الاقتصاد وعلم الاجتماع ·

وفى جامعة هارفارد حول بارسونز اهتمامه الى عالم الاقتصاد الانجليزى ألفرد مارشال بغرض كشف الأسس السيكولوجية والاجتماعية التى بنى فى ضوئها منظر الاقتصاديات الكلاسيكية ( الفرد مارشال ) مفهومه عن دافعية الفعل الانسانى والنشاط الاقتصادى ولقد أدى به هذا الى أن ينتبه الى أوجه القصور فى علم النفس وعلم الاجتماع الذى يبنى على اساس ايديولوجية ليبرالية ونفعية(٥) ·

والتفت بارسونز بعد ذلك الى باريتو ودوركايم ليصحح نموذج مارشال عن السلوك الاقتصادى · وتعرف بارسونز على أعمال باريتو من خلال لورانس هندرسون Lawrence Henderson ، وهو استاذ لعلم النفس فى هارفارد أصبح مفسرا امريكيا رائدا لعالم الاجتماع والاقتصاد الايطالى باريتو(٦) ، وأثر فى بارسونز تأثيرا بالغا · ولقد طور باريتو ـ على خلاف ما فعل مارشال ـ تحليلا مفصلا للفعل (للسلوك) غير الرشيد ، الذى أخرجه الاقتصاديون الكلاسيكون من نطاق دراساتهم · ورأى بارسونز فى تحليلات باريتو اسهاما هاما فى نظرية الفعل الانسانى ( السلوك الانسانى ) · وبالاضافة الى ذلك ، تعلم بارسونز من باريتو وهندرسون أن ينظر الى الفعل البشرى سواء أكان فعلا رشيدا أم غير

رشيد ـ على أنه نسق system وأصبح بارسونز مقتنعا بأن فكرة النسق هى أساس كل التفسيرات العلمية الصحيحة(٧) ٠

أما بالنسبة لدوركايم فان أغلب ما تعلمه بارسونز عنه ـ خاصة على جنزبرج ومالينوفسكى ـ كان قد اتخذ اتجاها وضعيا مضللا ولقد كتب بارسونز بنفسه « لقد أصبح من الضرورى الا نتعلم شيئا غير حقيقى عن دوركايم »(٨) ففى الدوائر السوسيولوجية الناطقة بالنجليزية، كانوا ينظرون الى دوركايم على أنه قد افترض نوعا من « العقل الجمعى » ( حيث ترجمت كلمة Conscience Collective الفرنسية بهذا المعنى) يعمل على استمرار المجتمع ٠ ولقد أدى هذا الى اتهام دوركايم بأنه يدعو « لخرافة عقل الجماعة » ومن ثم كان ينظر اليه على أنه من أنصار الاتجاه الاسمى الخطرين ٠ ولقد اندهش بارسونز عندما اكتشف فى أعمال دوركايم شيئا مختلفا تماما ٠ لقد نظر الى فكرة « الضمير الجمعى » ( أو الوعى الجمعى ) ـ على غير المتوقع ـ على أنها أساس للتفسير الاجتماعى النفسى للسلوك الأخلاقى والفعل الاجتماعى المعيارى ٠ وفى المجال الاقتصادى ، أعتبر بارسونز أن فكرة دوركايم عن العقد تلقى ضوءا جديدا على وظيفة النظم الاقتصادية الحديثة ٠ وأخيرا فقد تعلم بارسونز من دوركايم أن يتتبع العلاقات المتكاملة والمتضادة لقوى التضامن الاجتماعى وسوء التنظيم الاجتماعى ، وقوى التباين والتكامل(٩) ٠

بهذه الطريقة جمع بارسونز عمله الأول : « بناء الفعل الاجتماعى » الذى ظهر عام ١٩٣٧ واكد شهرة بارسونز كمنظر ٠ ولقد أعاد بارسونز فى هذا العمل الضخم تنظيم تحليلاته لأفكار مارشال وفيبر وباريتو ودوركايم واضعا فى ذهنة ثلاثة أغراض مختلفة لهذا التحليل ٠ الغرض الأول هو أن يتعرف على التفسيرات التى قدمها كل منهم للرأسمالية المعاصرة ، وأسسها وتطورها ٠ وفى هذا الصدد كان بارسونز يكمل البحث الذى بدأه برسالة الدكتوراه ٠ ومع ذلك فان هناك فارقا هاما

( بين التحليل هنا والتحليل هناك ) ٠ففى رسالته بدأ بارسونز من التحليل الماركسى للرأسمالية وقارنة بتحليل زمبارت وماكس فيبر ٠ أما فى العمل الذى قدمه عام ١٩٣٧ فلم يحتل ماركس فيه سوى وضع ضئيل وثانوى ٠

أما الغرض الثانى للكتاب فانه محاولة المقارنة ـ على مستوى عال من التعميم ـ بين الطرق التى من خلالها حل كل من مارشال وباريتو وفيبر ودوركايم مشكلة العلاقات بين النشاط الاقتصادى والسياق الاجتماعى الأوسع ٠ ويرتبط هذا الغرض الثانى ـ فى نظر بارسونز بالغرض الأول ؛ فالرأسمالية ـ من وجهة نظره ـ يجب أن تفسر وتحلل كنظام اقتصادى ـ كبناء للملكية والانتاج ـ يعتمد اعتمادا كليا على الأبنية الاجتماعية ، والقيم ، والاتجاهات والسلوك غير الاقتصادى ٠ ولقد اقتنع بارسونز بأن التفسير الاقتصادى الشامل للرأسمالية ، ولأى بناء اقتصادى بصفة عامة ، هو تفسير غير كاف اذا لم تسهم فيه التفسيرات السوسيولوجية ٠ ولقد عبر عن هذا الاقتناع بوضوح فى المقالات الأولى التى نشرها فى الفترة من ١٩٢٨ ـ ١٩٣٧ ٠ وتتبع هذه المسألة فى كتاب « بناء الفعل الاجتماعى » من خلال مناقشته للعلماء الذين اختارهم ٠ وسوف نرى فيما بعد أن هذه المشكلة تعد واحدة من الموضوعات الأساسية التى أضفت على العمل النظرى لبارسونز ضربا من الوحدة ٠

أما الغرض الثالث ـ وهو أهم هذه الأغراض جميعا وأوضحها ـ فانه الكشف عن نوعية الاتفاق ( الالتقاء ) الكامن فى فكر هؤلاء المفكرين الأربعة تجاه ما أسماه بارسونز « بالنظرية الطوعية فى الفعل الاجتماعى » Voluntaristic theory of action ٠ لقد رفض كل واحد من هؤلاء المفكرين الأربعة ـ حسبما ذهب بارسونز ـ الوضعية بطريقته الخاصة(١٠) ، كما اكد كل منهم على دور الذاتية subjectivity فى السلوك الانسانى ـ وتعنى الذاتية دوافع الفرد والاهداف التى يختارها ويسعى الى تحقيقها والقيم التى يلتزم بها ٠ هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فقد تخطى كل من هؤلاء المفكرين الأربعة اسلوب التحليل النفعى فى توضيح أن السعى وراء المصلحة الشخصية ليس الدافع الوحيد للسلوك البشرى ،

أو حتى الدافع السائد · فالانسان يحدد المعايير والقيم والأهداف ويلتزم بها ويعتبرها قواعد لسلوكه · ومن ثم فان بارسونز قد أعاد صياغة المشكلة القديمة المتعلقة برشد السلوك البشرى والعلاقة بين الوسائل والغايات ـ وهى المشكلة الرئيسية فى النظرية النفعيـة ، واعتبر بارسونز أن اعادة الصياغة هذه تعتبر عملا واعدا بالنسبة له ·

وربمـا يكون كتاب « بنـاء الفعل الاجتماعى » هـو أشهر أعمال بارسونز على الاطـلاق ، وذلك بسبب عمق واتساع تحليلة لتطـور الفكر الاجتماعى الغربى · والمحقق أن هـذا العمل يعتبر أقيم أعمال بارسونز بل انه اكثـر اسهاماته أصـالة فى النظرية السوسيولوجيـة · ولـكن بالنسبة لبارسونز نفسه لم يكن هـذا العمل سوى بداية ـ انه عمل هام ولكنـه غير مكتمل · ففى نهاية هـذا الكتاب قطع على نفسه عهـدا أن يمحص نظرية الفعـل ، التى اكتشف عناصـرها فى كتابات سابقيه · وبدأ يوضح الطرق العديدة التى فتحوها أو أشاروا اليها ، ويطور نظريته فى ضوء الأسس التى وضعوها ·

وبدأت المرحلة الثانية فى حيـاة بارسونز بعد نشر كتاب « بنـاء الفعل الاجتماعى » · لقد بدأ فى هذه المرحلة فى حـل المشكلات النظرية التى طرحهـا ، فى محـاولة لأن يزيد الفروض التى وضعهـا احـكاما ويخضعها للاختبار · ولقد أدى به هـذا الى أن ينشر سلسلة من المقالات عبـر سنوات عديدة تعالج موضـوعات مختلفة : الأسـرة ، والدين ، والمهن ، والتـدرج الاجتمـاعى ، والحـركات السياسيـة ، والدافعيـة الاقتصادية · والمحقق ان الدراسات والمقالات التى كتبهـا بارسونز عن موضوعات معينة تلعب دورا هاما فى تطـور تفكيره على ما سنرى فيما بعد · وعلى أى حال ، فان الجهـد النظرى لبارسونز لم يظهر فى صورة كتاب فى هـذه المرحلة ، ولكنه يوجد مبعثرا فى عـدد كبير من المقالات التى تعالج موضوعات نظرية وامبيريقية على حد سواء ·

فى الفترة من ١٩٣٧ حتى قرب بداية ١٩٥٠ نشر بارسونز حوالى ثلاثين مقـالا يتضح منهـا انه يستكشف بعض الطرق التى ستقوده الى الأمام · لقـد حاول أن يجمع أجزاء نظرية عامة استشرف آفاقها ولكنه

كان مايزال بحاجة الى أن يكسبها طابعا علميا منظما · وفى بداية الخمسينيات بدأت تظهر ثمرة كل هذه الجهود · ففى عامى ١٩٥١ و ١٩٥٣ نشر بارسونز ثلاثة مجلدات مثلت نقطة تحول فى أعماله ، فقد جمع فيها لأول مرة العناصر الأساسية لنظريته العامة بطريقة محددة· هذه الأعمال الثلاثة هى : « نحو نظرية عامة فى الفعل الاجتماعى » بالاشتراك مع ادوارد شيلز وكلايد كلاكهون وغيرهما (١٩٥١) ، « النسق الاجتماعى » ( ١٩٥١ ) ، « أوراق عمل فى نظرية الفعل » بالاشتراك مع روبرت بيلز وادوارد شيلز (١٩٥٣) · ويجب قراءة هذه الأعمال فى آن وحد لأنها تكمل بعضها ·

وهناك ثلاثة أشياء تتعلق بأعمال بارسونز فى هذه المرحلة · أولا : لقد بدأ يدرك المجال المتسع للنظرية العامة فى الفاعل ؛ فهى يجب أن تكون عامة بطريقة كافية ومجردة بحيث يمكن ان تنطبق على كل أشكال السلوك ( الفعل ) البشرى ، وليس الفعل الاقتصادى أو الفعل الاجتماعى بمعناه الضيق · ثانيا : حدد بارسونز وبطريقة مفصلة عناصر نموذجه النظرى الذى أطلق عليه نسق الفعل ؛ وبذلك أصبح اتجاهه اتجاها نسقيا بدلا من الاتجاه البنائى ـ الوظيفى · فقد بدأ ينظر الى الوظيفية باعتبارها صورة واحدة أو شكلا واحدا من أشكال تحليل الانساق ، الذى يعتبر شيئا أشمل واوسع · ثالثا : وضع بارسونز الاسس التى قام عليها تحليلة النسقى متمثلة فى متغيرات النمط والأبعاد الوظيفية الأربعة لكل أنساق الفعل ·

واذا كان بارسونز قد اعتبر علم الاجتماع مجرد فرع واحد داخل الاطار التصورى للنظرية العامة فى الفعل ، فقد كان عليه أن يوضح أن النظرية العامة يمكن أن تنطبق أيضا على المجالات الأخرى للسلوك البشرى ( للفعل البشرى ) · وهذا ما شغل به بارسونز نفسه فى المرحلة الثالثة من تطور أعماله حيث بدأ يدخل فى مجالات علوم أخرى غير علم الاجتماع · فقد طبق نموذجه النظرى على تحليل النسق الاقتصادى بالاشتراك مع نيل سملسر فى دراستهما بعنوان « الاقتصاد والمجتمع » المنشورة عام ١٩٥٦ · ولقد ارسى هذا العمل أسس علم

الاجتماع الاقتصادى بمعناه الجديد واضاف بعض العناصر الجديدة الى مشروعه النظرى · فمنذ دراساته المبكرة فى الاقتصـاد ، كان بارسونز متأثرا جدا بتقدم هذا العلم فى بناء نظريات تحليلة وفى تحديد المشكلات النظرية الرئيسية داخله تحديدا قاطعا · واقتنع بارسونز بـأن أساليب التحليل فى علم الاقتصاد يمكن أن تنطبق على كلأشكال الفعل الاجتماعى الأخرى · والمحقق أن بارسونز قد أسس نموذجه النظرى عن التفاعل بين الأنساق والانساق الفرعية ووسائل الاتصال التى تسهل هذا التفاعل فى ضوء نمط التحليل الاقتصادى ·

وفى الوقت الذى كان فيه بارسونز يستكشف المجـال الاقتصادى ، كان يفعل نفس الشىء فى المجالات الأخرى التى تتصل بالفعل الاجتماعى، وخاصة علم النفس وعلم السياسية · لقد تعرف بارسونز على التحليـل النفسى فى بداية الأربعينيات ؛ فقرأ أعمال فرويد قراءة جيدة وبذل فيها مجهودا كبيـرا · فبالرغم من أنه لم يكن مؤهـلا من الناحيـة الطبية ، الا أنه قـد تمـكن من الالتحـاق بمعهـد بوسطن للتحليـل النفسى كدارس خـاص · وهكـذا أصـبح فرويد من المؤثرات القـوية التى أثرت على تطور فـكر بارسونز · لقـد فكر بارسونز فى أن يقيم رابطة بين نظرية التحليل النفسى الفرويدية والنظرية العامـة فى الفعـل التى طورها هو · ولتحقيق هـذا الهـدف كتب سلسلة من المقالات عن بنـاء الشخصية ، والتعـلم ، والبيئة الاجتماعية · وأعيـد نشر أغلب هـذه المقالات فى كتاب « الأسـرة والتنشئة الاجتماعيـة وعمليـة التفاعل » المنشور عام ١٩٥٥ وكتاب « البناء الاجتماعى والشخصية » المنشور عام ١٩٦٤ ·

واهتم بارسونز بعـلم السياسة ـ مثـل اهتمامه بالاقتصاد ـ منذ بداية عمله الاكاديمى ، متأثرا فى ذلك بماكس فيبر على وجه الخصوص· ولقد عاد عـام ١٩٦٠ واهتم اهتماما مكثفا بهـذا المجال · وقبل هـذا التاريخ كان بارسونز يحـاول تفسير بعض الظواهر السياسية التى كانت تثير اهتمامه مثـل النازية ، والفاشية ، والمكارثية والدعاية السياسية · ولكنه حاول بعد عـام ١٩٦٠ أن يربط بين عـلم السياسة وبين نظريته العامة فى الفعل ربطا متكاملا · وقد فعـل ذلك من خلال تطبيقه للنموذج

النظرى الذى طوره فى دراسته عن « الاقتصاد والمجتمع » على العمليات السياسية · والمحقق أن وجهة نظر بارسونز فى علم الاجتماع السياسى، والتى ظهرت فى عدد كبير من المقالات خلال فترة تربو على الثلاثين عاما ، تمثل فى النهاية انجازا ضخما · ولقد جمعت أهم هذه المقالات فى كتاب « السياسة والبناء الاجتماعى » عام (١٩٦٩) ·

وأخيرا بدأ بارسونز فى تغيير مسار عمله من خلال صياغة تفسير للتطور العام للمجتمعات والحضارات · فمن خلال تأثره الشديد بالاتجاه التطورى الذى ساد فى القرن التاسع عشر بصفة عامة وهربرت سبنسر بصفة خاصة ، حاول بارسونز أن يحدد المراحل المتتابعة التى مر بها تطور المجتمعات · وظهرت هذه الافكار التطورية فى كتابين صغيرين هما : « المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة » (١٩٦٦) ، « نسق المجتمعات الحديثة » (١٩٧١) ·

ان هذا الاستعراض المختصر لا يلقى سوى نظرة سريعة على كتابات بارسونز ككل · واذا كان علينا أن نفهم دوافعه ، والنظرية التى طورها ، والمسائل العديدة التى استكشفها فاننا يجب أن نعود الى كل عمل من أعماله المختلفة تفصيلا · ولكن يجب علينا قبل ذلك أن نفهم علاقة بارسونز بعلم الاجتماع الأمريكى ·

### ثالثا : علم الاجتماع الامريكى فيما بين الحربين

كان الطابع الفكرى لتالكوت بارسونز ، منذ مقالاته الأولى وحتى بعد نشره لكتاب « بناء الفعل الاجتماعى » ، لا يتلاءم مع طابع علم الاجتماع الأمريكى فى هذه الفترة · فقد تعارض بارسونز ـ من نواح عديدة ـ مع التراث السوسيولوجى فى بلده ؛ بل أن النظرية التى رسم خطوطها فى هذا الكتاب ( يعنى كتاب بناء الفعل الاجتماعى ) قد فتحت مجالات جديدة وتمت مناقشتها مناقشة مستفيضة ·

كان الطابع الغالب على علم الاجتماع الأمريكى فيما بين الحربين هو الطابع الامبيريقى ـ والامبيريقية التى تميز بها ليست امبيريقية

متطرفة أو نظرية ، ولكنها امبيريقية واقعية استخدمت بنوع من الحماس والتعصب الذى لايترك الا مجالا ضيقا للشك فى النتائج التى يتم التوصل اليها فقد كان هناك تحمس واضح للبحث الامبيريقى الذى يهتم اهتماما بالغا « بالحقاق الواقعية » التى لا ترتبط بأى اطار تصورى أو مفاهيم نظرية مسبقة · فالنظرية ـ فى نظر الامبيريقيين ـ تتساوى فى الغالب مع الفلسفة والأيديولوجيات السياسية ، أو مع النظريات الميتافيزيقية وهى تتعارض مع البحث العلمى ·

وارتبطت الأعمال الامبيريقية فى علم الاجتماع الامريكى فى هذه الفترة بتراثين : تراث مدرسة شيكاغو ، وسلسلة الدراسات المونوجرافية عن المدن والمجتمعات المحلية الصغيرة والتى أجراها علماء اجتماع خارج شيكاغو · فمنذ بداية القرن العشرين كانت جامعة شيكاغو المركز الدينامى لتدريس علم الاجتماع والبحث الاجتماعى · لقد أعطى قسم الاجتماع فى شيكاغو دفعات قوية للبحث الاجتماعى وغرس فى العاملين فيه ـ طلابا وباحثين ـ ميلا امبيريقيا قويا الى درجة أنهم كونوا مدرسة حقيقة فى علم الاجتماع · ولكنها فى الواقع تعتبر مدرسة واسعة غير محددة المعالم طالما لا تمتلك نظرية أو اتجاها فكريا عاما · فما يربط اعضاء مدرسة شيكاغو ، أو على الأقل ما يضفى عليهم طابعا عاما ، هو اولا ثقتهم فى البحث السوسيولوجى واندفاعهم المستمر لتطبيق أدق المناهج المتاحة على موضوعات عديدة ومتنوعة · وهناك شىء آخر يتميزون به جميعا هو معملهم المفضل لاجراء دراساتهم ، وأعنى البيئة الحضرية · فقد أجريت بحوث عديدة ليس فقط فى المدن الأمريكية الكبيرة مثل شيكاغو ولكن فى المدن الصغيرة والمتوسطة أيضا ، وذلك تحت قيادة بارك Park وبيرجس Burgess اللذين ارتبط اسمهما بمدرسة شيكاغو وعلم الاجتماع الحضرى فى أمريكا(١١) · واهتم هؤلاء الباحثون بصفة خاصة بالصراع والجوانب الباثولوجية للوسط الحضرى · وشهدت فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين مناقشات مكثفة حول مشكلات الجماعات العرقية ( السلالية ) والعلاقات بين الأجناس ساهم فيها بارك وتوماس وويرث وفريزر وهيوز(١٢)

Hughes وتم اجراء دراسات هامة عن الاثار المترتبة على سوء التنظيم الاجتماعى ، منها دراسات سزرلاند عن الجريمة بصفة عامة وجرائم « ذوى الياقات البيضاء » بصفة خاصة ، ودراسات تراشر Thrasher عن العصابات المنحرفة ، ودراسات فارس Faris ودنهام Dunham عن المرض العقلى ، ودراسات شو Shaw وماكى Mckay عن انحراف الأحداث(١٣) · ولقد ادخلت مدرسة شيكاغو أيضا أساليب فنية اكثر تمحيصا فى البحوث الاجتماعية · فقد فضل كل من بارك وبيرجس الأساليب الاثنوجرافية على غرار أسلوب وليام توماس · أما أوجبرن فقد تحمس للمناهج الكمية ، حتى أصبح قسم الاجتماع فى شيكاغو أكثر الاقسام تقدما فى هذا الميدان بفضل تأثيره ·

أما التراث الثانى فى البحث الامبيريقى فهو ذلك التراث الذى ارتبط بسلسلة الدراسات الهامة عن المجتمع المحلى · فقد كان لهذه الدراسات تأثير قوى بعيد المدى على علم الاجتماع الامريكى ، كما كرس لهذا النوع من الدراسة جهد بحثى كبير · ومن اكبر هذه الدراسات تلك الدراسة التى ماتزال مشهورة حتى وقتنا هذا والتى أجراها لويد وارنر فى مدينة ساحلية صغيرة فى نيوانجلند · ولقد بدأ هذا المشروع فى عام ١٩٣٠ واستغرق عدة سنوات ، وغطت تكاليفه نشر خمسة مجلدات(١٤) · وهناك العديد من الدراسات الاخرى التى تستأهل الاشارة خاصة الدراسات التى اجراها روبرت وهيلين لند على مدينة ميونيسى Muncie فى انديانا(١٥) ، ودراسة اليون ديفز ، وبيرلف وماري جاردنر على احدى مدن الجنوب(١٦) ، ودراسة جيمس ويست على احدى مدن وسط غرب أمريكا(١٧) ودراسة وليم فوت وايت على الحى الايطالى فى بوسطن(١٨) ·

ولقد ابتعد هؤلاء الدارسون ـ فى دراساتهم المونوجرافية ـ عن تصوير الحياة فى أحد المدن على أنها صورة طرازية للحياة الأمريكية ككل · ومع ذلك فقد كان هناك ـ بسبب نقص الدراسات الواسعة النطاق ( الدراسات الماكروسكوبية ) ـ ما يدعو الى الاعتقاد بأن هذه الدراسات المونوجرافية تصور أسلوب الحياة الأمريكى ·

وكان هـذا هـو السبب فيما حققته هذه الدراسات من نجاح وشهرة · وربما يكمن الاسهام الرئيسى الذى قدمته هـذه الدراسات لعلم الاجتماع الامريكى فى أنها قدمت الدليل على وجـود طبقات اجتماعية اكثر تحديدا مما كان يعتقـد الأمريكيون فى هذا الوقت ، بل انهـا قدمت الدليل على وجود نسق طائفى يفصل بين السود والبيض فى اقصى الجنوب ·

وربما يكون تأثير هذه الدراسـات التى أجريت بدقة بالغـة فى المجتمعات المحلية هو الذى جعل علمـاء الاجتماع الأمريكيين يرفضون لوقت طويل الكتابة أو التحـدث عن المجتمع الأمريكى ككل ، أو المجتمع الغربى · لقد كانوا ينظرون الى التعميمات بقدر من الشك بسبب تأثرهم بتراث النزعة الامبيريقية والدراسـات المونوجرافية المفصلة · بل أنهم كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن تجاوز الوقائع المنظورة والملموسة يؤدى الى احياء ما اطلقوا عليه « الانطباعية » impressionism ، والى ما يمكن أن يضلل قراءهم ويسىء الى سمعة علم الاجتمـاع · ولذلك فان اهتمام علماء الاجتماع الأمريكيين بالدقة والاحكام المنهجى قد جعلهم يؤمنون لوقت طويل بأنهم لا يمكن أن يدرسوا المجتمع الا من خـلال الدراسات المفصلة والمجزأة ·

والمحقق أن علماء الاجتماع الأمريكيين قد قدموا اسـهاما نظريا ايجابيا فى مجال قريب من مجال علم الاجتماع هو مجال علم النفس الاجتماعى · فحتى منتصف القرن الحالى ـ كما لاحظ بارسونز نفسه ـ كان علم النفس الاجتماعى المرتبط بمفهوم « التفاعل الرمزى » يمثـل اهم اسهام أمريكى مميز فى مجال النظرية السوسيولوجية(١٩) · فوليم توماس وكولى وجورج هربرت ميد يعتبرون من الرواد الأوائل البارزين للمدرسة التى عرفت فيما بعد « بالتفاعلية الرمزية »(٢٠) Symbolic interactionism · فقـد ساهم هؤلاء العلمـاء الثـلاثة اسهاما كبيرا فى تحليل العلاقات الشخصية · ويعد مفهوم الذات self أحد المفاهيم الرئيسية التى استخدموها ، كما ركزوا على أهمية ادراك الفرد لذاته وللآخرين · وتشكل عمليات الادراك هذه عملية التفاعل كما انها تتشكل

من خلالها · وعموما فقد اهتم هؤلاء العلماء بتأثير البيئة الاجتماعية المباشرة على شخصية الفرد · وهكذا حقق علم النفس الاجتماعى تقدما ملحوظا اذا قورن بعلم الاجتماع الذى يهتم بالجوانب الامبيريقية والذى لم يثمر عن أى اطار نظرى · ولقد ساعد على هذا التطور فى مجال علم النفس الاجتماعى التقدم الذى مين علم النفس فى هـــذه الفترة وكذلك الجو البروتستنتى المنتشر فى الولايات المتحدة والذى كان يفضل التفسيرات الفردية للظواهر الاجتماعية دون التفسيرات الجمعية ·

فليس من الغريب اذن فى هذا الاطار أن يهتم علماء الاجتمـــاع الأمريكيون بجبرائيل تارد اكثر من اهتمامهم باميـل دوركايم · ولقـد أشرنا منذ قليل الى مظاهر الاجحاف التى كانت موجودة فى الولايات المتحدة تجاه دوركايم · وفى مقابل ذلك تأثروا تأثرا شديدا بعلم النفس الاجتمـاعى عنـد جبرائيل تارد ، وبمناقشته للمحاكاة ، وبنظريته فى المجتمع · فقد عرف تارد المجتمع بأنه مركب من العلاقات الشخصية بين الأفراد والجماعات التى تؤثر فى بعضها تأثيرا متبادلا · ولقد تأثرت مدرسة شيكاغو بصفة خاصة وعلم الاجتماع بصفة عامة فى بداية هذا القـرن بجورج زمـــل Simmel من بين علماء الاجتماع الألمـــان · فمنذ عام ١٨٩٦ ، وتحت تأثير البيون سمول A. Small ، وهو واحد من رواد علم الاجتماع الامريكى ، بدأت مقالات زمل تنشر بانتظام فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتمـــاع(٢١) · والحقيقة أن التراث الامريكى الخـــاص بدراسات التفاعل الثنائى والثلاثى والتفاعل بين الجماعات الصغيرة ، والخاص بالأعمـــال التى عالجت الأسس النظرية للتفاعل ، هذا التراث قد نبع فى الجانب الاكبر منه من تأثير جورج زمل ·

وهناك خاصية أخرى تسم علم الاجتمـاع فى هـــذه الفترة وهى خاصية تتصل بالنزعة الامبيريقية داخله ، هى عدم الاهتمـــام المطلق بدراسة تاريخ علم الاجتماع والفكر الاجتماعى · فقد كان علماء الاجتماع الامريكيون يعتقدون اعتقادا كبيرا فى البحث الامبيريقى ، الذى يمكن أن يكون بالتدريج معرفة أكثر دقة عن قطاعات معينة من المجتمـــع · وما عدا ذلك فانه يعتبر فى نظرهم ضربا من الثقافة السطحية التى كان

القائمون على مهنة التعليم فى أمريكا فى هذه الفترة ينظرون اليهـــا بقدر كبير من الشك · فهم يفضلون أن يقرأ طالب علم الاجتماع الدراسات المونوجرافية المنشورة ويستوعبها بدلا من قراءة أعمال الأباء المؤسسين من أمثال كونت وماركس وسبنسر ودوركايم ، والذين كانوا من وجهـة نظرهم فلاسفة وليسوا علماء ·

## رابعا : فى مواجهة تيار علم الاجتماع الأمريكى

هذا باختصار جانب من الملامح الرئيسية للجو الفكرى الذى ساد علم الاجتماع الأمريكى فيما بين الحربين · أما بارسونز ـ الذى كان أميل الى التفكير المجرد منه الى البحث الامبيريقى ـ فقد اهتم اهتماما بالغا بتاريخ الفكر ، الأمر الذى جعله مميزا بين زملائه من الباحثين فى علم الاجتماع · فمن الطرق التى أظهرت أصالة بارسونز منذ أعمـاله المبكرة أنه تأثر تأثرا كبيرا بالمفكرين الأوربيين الذين لم يكن يعـــرف الأمريكيون عنهم سوى القليل · فهو يعد مسئولا عن نشر أفكار ماكس فيبر بين الأمريكين ؛ فقد كان أول من ترجم أعمال فيبر ومن أوائل الذين علقوا عليها باللغة الانجليزية · كما أنه أسهم أكثر من أى شخص آخر فى رد اعتبار دوركايم فى الولايات المتحـدة · أمـا بالنسبة لفلرفريدو باريتو فقد قدم أعماله وحللها بوضوح وتمكن لم يتوافر لأحد غيره الى الآن(٢٢) · أما فى علم الاقتصاد فقد اهتم بارسونز بعالم الاقتصـــاد الانجليزى الفرد مارشـــال الذى اعتبره المنظر الرئيسى للاقتصاديات الحديثة ، والذى يمكن أن تخضع أعمـــاله للمناقشة السوسيولوجية · أما عن أعمال ماركس والكتاب الاشتراكين ، فمن الصعب تحديد ما قرأه منها بارسونز بالضبط ، غير أنه من الواضح أنه تعرف على أعمـــال ماركس جيدا ، لأنه كان يشير اليها باستمرار فى مقـالاته الأولى وفى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » · أما الآن فمن الصعب تحديد درجة عدم التزمت التى كانت متاحة فى المجتمع الأمريكى بحيث يستطيع أحد علماء الاجتماع الأمريكين أن يقرأ ماركس ويناقش أفكاره ·

أما الكتاب الآخرون الذين أشار اليهم بارسونز فى أعماله المبكرة فهم تونيز ، وزمـــل ، وموس ، وفالفـــاكس وبياجيـــه ، ومالنس ·

ومالينوفسكى · ولم يغفر لبارسونز لفترة طويلة انه لم يشر الى اى من علماء الاجتماع الأمريكين فى كتابه « بناء الفعل الاجتماعى » · وبعده بدأ بارسونز يشير الى اسهامات كولى ، وتوماس ، وميد فى علم الاجتماع المعاصر ، حيث أصبح أكثر اهتماما بأعمالهم · ولكن أسماء ثلاثتهم لم تظهر حتى فى الفهرس التحليلى لكتاب « بناء الفعل الاجتماعى »(٢٢) ·

فالصورة الأولية التى تكونت عن بارسونز أنه باحث استقى منابعه الفكرية كلها من أوربا · ولم تكن هذه المنابع المانية فقط ، كما فعل كثير من مثقفى أمريكا فى هذه الفترة ، ولكنها كانت فرنسية ، وانجليزية ، وايطالية أيضا · ووضع بارسونز نفسه منذ البداية ـ وبطريقة مباشرة ـ فى الموضع الصحيح داخل تيار الفكر الاجتماعى فى القرنين الأخيرين · فعلاوة على اطلاعه على تراث علماء الاجتماع الأوائل ومؤسسى علم الاجتماع فقد اطلع بارسونز أيضا على التراث الفكرى الخاص بالفلاسفة الانجليز ، هوبز ، ولوك ، وميل · ولقد تتبع على عكس هؤلاء الفلاسفة ـ التراث المثالى التاريخى الألمانى من هيجل الى ديلثى الى زمبارت ثم فيبر من ناحية ، ووضعية كونت وماركس وسبنسر من ناحية أخرى · ومع ذلك فقد كان تأثير هوبز والفلاسفة الانجليز على تفكيره تأثيرا كبيرا · فقد حدد فى ضوء أفكارهم مشكلات استمرار المجتمع ، والمشكلات المتعلقة بأسس الحياة الاجتماعية والبناء الأساسى للسلوك ( الفعل ) البشرى والقوى التى تقوى من التضامن والتكامل والتغير داخل المجتمع ·

وكانت هذه التأثيرات الفكرية هى أساس الاتجاه المضاد للنزعة الامبيريقية عند بارسونز وهو الاتجاه الذى يميزه ـ اكثر من أى شىء آخر ـ عن علماء الاجتماع الأمريكين فى هذه الفترة · فيمكن القول ـ على مستوى فلسفة العلم ـ أن بارسونز عالم يعادى النزعة الامبيريقية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى · ليس معنى هذا أنه يحتقر البحث الامبيريقى فى حد ذاته ؛ لقد كان يحترم زملاءه على اسهاماتهم المنهجية، وأساليبهم الدقيقة والمحكمة · وبالرغم من أنه صرح بنفسه أنه ليس ضليعا فى مناهج البحث الا أنه لم ينتقد ولم يحتقر مطلقا ـ على عكس

الآخرين ـ هؤلاء الذين يهتمون اهتماما بالغـــا بأساليب البحث · على العكس من ذلك تماما لقد كان يعترف بفضلهم ، ولقد أجرى بنفسه فى مرات عديدة بحوثا امبيريقية ·

ان النقطة التى أراد بارسونز تأكيدها تعتبر شيئا مختلفا تماما · لقد اقتنع بأن متطلبات العلم لا يمكن أن تستكمل من خلال البحث الامبيريقى وحده · فالنتائج الامبيريقيـــة يجب أن توضع فى أطار نظرى عن طريق التصـــور العقلى · فوجـــود النظرية ضرورى لكى تزودنا بالتصورات والفروض والعـــلاقات المنطقية والتأويلات التفسيرية ، ولكى تمدنا فى النهاية بأسس التنبؤ العلمى · لقد كان بارسونز يرفض دائمـــا مفهوم العلم الذى يعتبر « الحقائق المباشرة » Raw Facts المتجمعة من خـــلال البحوث على أنها تصوير دقيق للواقع · لذلك فقد أوضح أن « الحقيقة » أو « الواقعة » Fact ما هى الا صياغة جاهزة للواقع تم تكوينها من خلال اللجـــوء ـ بوعى أو من غير وعى ـ الى التصورات والمفـاهيم والنظريات · وينحصر عمل المفكر النظرى فى توضيح الأدوات التصورية التى يستخدمها الباحث الملاحظ فى أدراك الحقـــائق وتجميعها ، وفى صياغة هذه الأدوات صياغة منطقية وتوسيع مجالها باستمرار ·

وفى اعتقاد بارسونز أن علم الاقتصاد هو اكثر العلوم الاجتماعية تقدما من حيث صياغة النظرية · فمن خلال التركيز على السلوك الرشيد داخل قطاع معين من الأنشطة البشرية ، استطاع علم الاقتصاد أن يقلل من حدود عدم التأكد فى دراسة السلوك البشرى واستطاع أن يعمل من خلال نماذج منطقية تقوم على الاستقراء والاستدلال ، أى على ملاحظة الحقائق ثم تحليلها منطقيـــا · وكان بارســـونز يكن احتراما كبيرا للاقتصاد ، فقد اقتنع أن أساليبه فى التحليل يمكن أن تصلح لبنـــاء نموذج فى علم الاجتماع · والحقق أن عمل بارسونز الاكاديمى بدأ فى مجال علم الاقتصاد وأنه عاد الى الاهتمام به بعد خمسة وعشرين عاما من بداية حياته الأكاديمية · ومن ثم فقد ترك الاقتصاد علامة مميزة على أعماله · ولقد أدى اهتمام بارسونز بعلم الاقتصاد الى تصنيفه خارج نطاق علم الاجتماع الامريكى لفترة طويلة · وعموما فان علماء الاجتماع

الامريكيين كانوا قد أظهروا قدرا كبيرا من اللامبالاه تجاه علم الاقتصاد؛ بل أن معظمهم كان جاهلا بحق بهذا العلم ؛ فى الوقت الذى كانوا فيه يكتسبون معرفة عميقة بعلم النفس والتحليل النفسى · أما بارسونز فقد اهتم بعلم الاقتصاد اهتماما قلما وجد بين علماء الاجتماع الأمريكين ، ولم يهتم بالموضوعات التى اهتموا بها الا اهتماما ضئيلا ·

ومع ذلك فان نظرتنا الى أعمـال بارسونز ستظل جزئية وقاصرة اذا ما وضعنا فى اعتبارنا أعماله النظرية فقط · فقد كتب بارسونز أيضا عددا كبيرا من المقالات الامبيريقية · فبالرغم من أن بارسونز يسم نفسه بأنه منظر أصيل ، الا أنه يرفض أن يعتبر نفسه منظرا فقط ؛ فغالبـا ما أكد على وجود جانب امبيريقى فى كل أعماله · ولكن الجانب الأعظم مما يعتبره تحليلات امبيريقية قد ظهر بشكل غير معتاد الى درجة جعلته يتصادم مع علم الاجتماع الامريكى فى عصره · لقـد أجرى بارسونز بنفسه ثلاثة أنواع من البحث الامبيريقى · **فأولا** وعلى خلاف الصورة المأخوذة عنه أجرى بارسونز بحوثا امبيريقية باستخدام الأدوات المعروفة فى البحث السوسيولوجى ، أعنى المقابلات ، والاستبيانات ، والملاحظة بالمشاركة ، واستخدام البيانات الكمية · فقد أجرى على وجه الخصوص دراسات على مهنة الطب ، وعلى تطلعات الشـباب الأمريكى ، وعلى المجتمع الأكاديمى · ولم يشتهر بارسونز بهذا النوع من البحث الامبيريقى، وانما اشتهر بالنوعين الآخرين ·

أما **النوع الثانى** ، والذى ظهر فى شكل مقـالات وليس بحوثا ، فان بارسونز قد صور فيه المشكلات الهامة فى المجتمع المعاصر · فاهتمامه بنظم المجتمع ، وبالتنمية وأزمات المجتمع الصناعى الحديث لم يفتر على الاطلاق ، بل أنه قد أدى به الى استكشاف عدد كبير من الموضوعات · ولذلك فليس صدفة أن يبدأ عمله الأكاديمى باثارة سلسلة من التساؤلات عن الرأسمالية · ولقد ذكرنا فيما سبق أن بارسونز عنـدما أجرى دراساته عن ماركس ، وزمبارت ، وفيبر ، وباريتو ، ودوركايم قد حاول فى المحل الأول أن يقارن بين تفسيراتهم لأصول وتاريخ وبناء المجتمع الرأسمالى · ولقد استمر بارسونز فيمـا بعد فى تحليل كل جانب من

جوانب المجتمع الصناعى الحديث ، وكونت المقالات التى كتبها فى هذا الصدد جانبا كبيرا ومؤثرا من أعماله · واذا ما حاولنا تجميع مقالاته الامبيريقية فاننا نستطيع أن نشتق منهـــا الملامح العـــامة للمجتمعات الصناعية · ولقد لاحظ بارسونز بنفسه ، أنه من النادر أن يحاول العلماء الاجتماعيون ــ فى الولايات المتحدة على الأقل ــ اجراء تحليلات تفسيرية للجوانب الأساسية للمجتمع الذى يعيشون فيه(٢٤) · ويعـــد بارسونز واحدا من علماء الاجتماع الأمريكين القلائل ــ فى فترة ما بعد الحرب ــ الذين لم يخشوا تجاوز الحدود الضيقة للبحث الامبيريقى من أجـــل تقديم تصورات فى صورة أشمل واعم ·

وربما يكون الشكل **الثالث** من أعمـــال بارسونز الامبيريقية هـــو اكثرها غرابة · فهو دائمـــا ما يصف كتاب « بنـــاء الفعل الاجتماعى » على أنه عمل امبيريقى · انه لم يدرس جماعة محلية بعينها أو جماعة اجتماعية بعينها ، ولكنه درس أفكار بعض الكتاب · فقد اعتبر هـــذه الأفكار مجرد « بيانات خام » ، واعتقد أنه يستطيع تجميع الموضوعات الأساسية الهامة من أجل توضيح أوجه التشابه فيما بينهم ذلك التشابه الكامن خلف الاختلافات السطحية الواضحة للعيان · فمن خلال اختياره لكتاب عمل كل منهم بمعزل عن الآخر ، حاول بارسونز ــ وبطريقة مقنعة ــ توضيح مظاهر الالتقاء التى اعتقـــد انها موجودة فى تحليلهم لأسس المجتمع ، وللعلاقة بين الفرد والمجتمع · لقـــد كانت كتـــابات كل من دوركايم ، وفيبر ، وباريتو ، ومارشال عبارة عن « الحقائق » التى حاول وصفها وصفا صادقا دون تشويه ، ثم حاول بعد ذلك تفسيرها وأعاد تفسيرها من خلال وضعها فى اطـــار جديد ــ أعنى النظرية العامة للفعل والتى تتطابق من وجهة نظره مع آراء هؤلاء الكتاب ·

ويستطيع بارسونز أن يرد على نقاده بالقول بأن عمله النظرى فى حد ذاته ما هو الا نتاج التراث الامبيريقى الامريكى ، وذلك لأن هنـــاك خاصية « براجماتية » كامنه داخله على ما يدعى · ومن المؤكد أن الذين اتهموه بأنه يكتب للخاصة سوف يقتنعون بهذا التفسير لاعماله ·

## خامسا : الأسس الابستومولوجية لعلم الاجتماع

وهناك وجه آخر للأختلاف بين بارسونز وبين زملائه فى علم الاجتماع الامريكى فى فترة ما بين الحربين وفترة ما بعد الحرب ـ يكمن فى اهتمام بارسونز بالمشكلات الابستومولوجية ( المعرفية ) · فلم يسلم بارسونزـكما فعل الآخرونـبأن لعلمالاجتماع موضوعاميزا وواضحا· فمن خلال تأثره الواضح بماكس فيبر ، سواء فى أسلوبه فى اثارة المشكلات او اسلوبه فى حل هذه المشكلات ، أثار بارسونز بعض التساؤلات حول علاقة علم الاجتماع بموضوعه وحول صدق المعرفة السوسيولوجية · وبالتحديد فقد أثار بارسونز مشكلتين منهجيتين هما : مشكلة الأسس الابستومولوجية لعلم الاجتماع كفرع من المعرفة العلمية ، ومشكلة الدور الذى تلعبه القيم فى المعرفة السوسيولوجية ·

واذا ما كان هناك خط واحد يربط بين أعمال بارسونز جميعا ، فان هذا الخط يوجد فى ثقته فى الطابع العلمى لعلم الاجتماع · فهو لم يتردد فى هذا الموقف ولم يتخل عنه أطلاقا · فعلم الاجتماع لا بد أن يصبح علما ، ولقد كرس نفسه ليجعل علم الاجتماع قادرا على أن يفى بمتطلبات العلم · وهذه ـ أساسا ـ هى المهمة التى كرس لها حياته وعمله ، وهى مهمة لم يحد عنها منذ كتاباته الأولى وحتى كتاباته الأخيرة ·

ولكن من الأهمية بمكان أن نفهم ماذا يقصد بارسونز بالطبيعة العلمية لعلم الاجتماع · ففى اعتقاده ـ أولا ـ أن الامبيريقية المتطرفة ما هى الا علم زائف بل انها خرافة علمية ، فهى تجافى الروح العلمية الحقيقية · فضلا عن أن الأمبيريقية المتطرفة مستحيلة على أى حال ؛ فالمعرفة بالحقائق تتضمن استخدام المفاهيم ، والمقولات المنطقية ، والتصنيفات ، والنظريات · ومن ثم فان أى فرد يدعى أنه يكون فهما علميا حقيقيا من القراءة المباشرة للحقائق يظل عمله ناقصا ومنتقدا · بل ان بارسونز اعتبر أن هذا الاتجاه الوضعى الزائف خيانة لأغراض العلم واجراءاته المنهجية ·

فالعلم بالنسبة لبارسونز علم تحليلى analytic ، ويعنى بذلك أن العلم يحاول اعادة بناء الواقع اعتمادا على الرموز التصـــورية ، هذه الرموز التى لا يجب الخلط بينها وبين الواقع الملموس · والرموز التصورية ليست انعكاسات كاملة للعالم الموضوعى ؛ ولكن يتم تكوينها عن طريق اختيار ملامح معينة من الواقع والتركيز عليها ، وهذه بدورها تسهم فى بناء الادراك والمعرفة · والبناء العقلى الذى تمكننا الرموز التصورية من تشييده ما هـــو الا جانب معين من الواقع الموضوعى · ولذلك فليس من الضرورى القول بأن المعرفة لا تمثل وسيطا بين الواقع الموضوعى والبناء التصورى · لأن البناء التصورى ما هو الا تشييد عقلى ناتج ــ بوعى أو من غير وعى ــ عن عملية تحليلية يتم من خلالها التركيز على عناصر معينة منتقاة على حساب عناصر أخرى ·

ومع ذلك فان هذا الاجراء التحليلى لا ينتج فقط من خلال التخيلات الموجهة كما اعتقد ماكس فيبر فى مناقشته لطريقة تشييد الانماط المثالية· فقد حدد بارسونز موقفه الابستومولوجى فيمـــا أســـماه « بالواقعية التحليلية »(٢٥) analytical realism · ويقصد بالواقعية انه اذا كان التصور ( البناء ) العقلى mental construct ليس انعكاسا كاملا للواقع ، فانه يعد بمثابة اعادة تشييد أو اعادة بناء لهذا الواقع وليس تحريفا له· وهو ينتقى جوانب من الواقع بطريقة محددة · ولأن هناك تفاعلا مستمرا بين المفهوم والواقع ، فان التصور العقلى يتطابق مع الواقع باستمرار من خلال التقديرات التقريبية المتتالية · وتشكل هذه الواقعية التحليلية الأساس الابستومولوجى الذى بمقتضاه كون بارسونز ثقته التامة بالمعرفة العلمية · ويستطيع الانسان دائما أن يسعى الى التوصـــل الى معرفة تقل درجة التقريب فيها عن المعرفة التى توصل اليها بالفعل ، ما دامت المعرفة ذاتها معرفة تحليلية ، وما دام التحليل يتوافق مع بعض جوانب الواقع الموضوعى ·

ولكن هناك شرطا ضروريا لتحقيق هذا المطلب : فلكى توصف المعرفة

بأنها معرفة علمية ، فلابد أن يعتمد صدقها على كونها معرفة تم تكوينها طبقا لقوانين المنهج العلمى · ولقد تم صياغة هذه القوانين صياغة دقيقة خلال القرون القليلة الماضية · وأصبح من المؤكد الآن أن هذه القوانين فقط هى القادرة على صياغة معرفة حقيقية عن الواقع ـ معرفة تبرهن على صدقها الذاتى من خلال ما يتوفر فيها من الضبط والتنبؤ والاحكام · لقد اعتقد بارسونز اعتقادا صارما أن علم الاجتماع يجب أن يبنى من خلال التطبيق الدقيق لهذه القوانين ، وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن من خلالها أن يكتسب صفة العلم · وواضح أن بارسونز هنا يعارض بشدة تيارين من تيارات الفكر انحدرا الينا من القرن التاسع عشر ، وأعنى المذهب التاريخى historicism والمذهب السلوكى behaviourism ، حيث اعتقد أن كلا المذهبين قد عطل التقدم العلمى لعلم الاجتماع ·

فالمدرسة التاريخية ، التى ظهرت بقوة فى ألمانيا ، تعتبر أنه من غير الممكن وجود علوم اجتماعية ، لان التاريخ البشرى يتكون من أحداث فريدة متتابعة وليست متكررة ، وان كل حضارة تمثل وحدة بذاتها ، ولا يمكن اختزالها الى أى شىء آخر ، وهى فريدة فى بنائها وروحها وتاريخها · وبناء على ذلك يصبح التاريخ وحده هو العلم الاجتماعى ، ويكون هدفه هو الربط بين هذه الأحداث الفريدة وتفسيرها ، دون استخلاص أى تعميمات يمكن أن تصبح قانونا أو نظرية عامة ·

وحتى ماكس فيبر الذى حاول الابتعاد عن التفرقة الصارمة التى أقامها كانت Kant بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية Geisteswissenchaften ، قد أظهر ضعفا أمام المذهب التاريخى · ولقد اتبع بارسونز الخط الفكرى لماكس فيبر مع ادخال بعض التعديلات عليه ، وتفرغ لمهمة توضيح امكانية وضرورة صياغة نظرية عامة لفهم المجتمع وتاريخه · ولقد اعتبر بارسونز هذه المهمة اكثر الجوانب طموحا فى أعماله ، لأنها تضمنت نظرية عامة قابلة للتطبيق على المجال الكلى للفعل البشرى · وغالبا ما قوبل بارسونز بالهجوم من جانب أنصار ما يسمى بالنظريات الوسطى Middle - range theories ، وعلى رأسهم

روبرت ميرتون(٢٦) · فقد ذهب ميرتون الى أن علم الاجتمـــاع ليس فى مقدوره الآن صـــياغة نظرية عامة ، انه يستطيع صـــياغة نظريات محدودة ، تصدق على جوانب معينة من الواقع الاجتماعى ، مثل نظرية الجماعات الصغيرة ، ونظرية التنظيم ، ونظرية الاتصال · ونظر بارسونز الى هذا الاحجام المفرط عن صياغة نظرية عامة على أنه نتيجة لعـــدم الثقة فى التقدم العلمى ، لأن هذه النظريات الوسطى ــ يجب أن تترابط فى نظرية عامة ؛ فالنظرية العامة يجب أن تضع كل هذه النظريات فى اطار تصورى واحد بحيث ترتبط كل نظرية وسطى بالأخرى ·

وربما يكون باسونز هو أكثر علماء الاجتمـــاع الذين عبروا عن معارضتهم الشديدة والقاطعة للمذهب التاريخى الاجتماعى ، هـــذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فقد كان اكثر العلمـــاء الذين عبروا عن المتطلبـــات النظرية التى يجب أن تتوفر لـــكى تصبح العلوم الاجتماعية علوما بكل ما تعنيه الكلمة من معنى · ولهذا فان بارسونز لا يرى أن هناك فرقا بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية · فعلى كل منهمـــا تنطبق نفس قواعد المنهج العلمى ، ذلك لانهما يعتمدان على نفس الأسس الابستومولوجية ــ أعنى أسس الواقعية التحليلية · وقد عبر بارسونز عن ايمانه بوحدة المنهج العلمى فى أحد الأفـــكار التى أصبحت تكون صلب أعماله ــ أعنى فكرة كلية وجود مفهوم النسق The ubiquity of the concept of system فبامكاننا صياغة بناء أى جانب من جوانب الواقع صياغة عقلية ونظرية فقط عندما ننظر اليه على أنه يشكل نسقا بالمعنى الدقيق للكلمة · وتتضمن فـــكرة النسق عنـد بارسونز ــ باختصار ــ الاعتماد المتبادل بين الأجزاء التى تشكل كلا بحيث ترتبط ببعضها الى درجة أن التغير أو الحركة داخل هـــذا الكل لا يمكن أن تظهر بطريقة عفوية أو غير منظمة ، وانمـــا تظهر كنتيجة لتفاعل معقـد فى الأبنية والعمليات · فقد اكد بارسونز منذ أعماله المبكرة ضرورة وجود مدخل نسقى للمعرفة العلمية ويتوقف تقدم علم الاجتماع والعلـوم الاجتماعية الأخرى على درجة تطويرها لفهم نسقى للمادة التى تدرسها · ولهـــذا كانت فكرة النسق فكرة رئيسية فى المشروع النظرى الذى قدمه بارسونز، ولقد كانت مجالا لكثير من النقد جعلنا نفرد لها مناقشة مستفيضة فيما

بعد · ويكفى عند هذه المرحلة أن نؤكد ان فكرة النسق كانت بالنسبة لبارسونز محور التحليل العلمى ومن ثم فلا يمكن الاستغناء عنها فى علم الاجتماع ·

ولقد عارض بارسونز ـ فى تأكيده على الطابع العلمى لعلم الاجتماع ـ عارض وجهة النظر السلوكية فى العلوم الاجتماعية ، التى تعترف فقط ـ على عكس المذهب التاريخى ـ بالمعرفة الموضوعية والخارجية عن الواقع · ومحاولة دراسة النشاط الانسانى من الخارج ، مع عدم التسليم بأى شيء خارج نطاق السلوك الملحوظ الواضح للعيان ، هذه المحاولة تعنى انكار وجود جانب كبير من الواقع الاجتماعى يتكون من مجموعة من الحقائق لها نفس درجة الصدق والواقعية التى تميز الحقائق التى يمكن ملاحظتها من الخارج · فدافعية الفرد ، وادراكه ، وأفكاره ، وعواطفه ، وأهدافه ومخاوفه وهواجسه الخاصة ـ كل هذه الأشياء أشياء واقعية ، ومن الضرورى أن يشتمل عليها أى نموذج تفسيرى للسلوك الظاهرى ·

ومن أول الاسهامات التى قدمها بارسونز ، خاصة فى دراسته بعنوان « بناء الفعل الاجتماعى » ، تأكيده على أن للفاعلين دوافع ، وأهدافا ، ورغبات ، ويجب أن تكون النظرية العامه فى السلوك البشرى قادرة على أن تربط كل جوانب الواقع ربطا متكاملا · فالأهداف ، والرغبات ، والدافعية ليست أقل خضوعا للتحليل العلمى من الاستجابات الشرطية التى درسها بافلوف · اننا يجب أن ندرك أن دراسة الذاتية الكامنة فى الموضوع ليست خيانة للموضوعية من جانب الباحث · لقد ظهرت النزعة السلوكية كاتجاه معارض لنزعة الاستبطان introspectionism فى علم النفس · فقد خلطت هذه المدرسة فى علم النفس بين ذاتية الموضوع وذاتية الباحث ، واعتقدت أن الاستبطان هو المنهج الوحيد لكشف الأعماق الذاتية للوجود السيكولوجى · ومنذ بداية القرن والتحليل النفسى يسعى باستفاضة الى توضيح صدق المعرفة الموضوعية للذاتية والاستخدام العلاجى الذى يمكن أن يطور من خلالها · والحقيقة أنه لم يوجد أى تناقض على الاطلاق بين قوانين المنهج العلمى وامكانية

فهم الواقع الخارجى من الداخل · واذا كانت العلوم الطبيعية قد ميزت تمييزا واضحا بين الموضوعية والذاتية ، فانهـــا قـــد فعلت ذلك لأن موضوعها ليس له ذاتية ، أو لأن من الصعب اكتشاف أبعادها ، كما هو الحال عند الحيوانات · واذا كان على العلوم الاجتماعية أن تتبنى هذا التمييز الدقيق فلا يجب أن تقلد فى ذلك العلوم الطبيعية ، بل يجب أن ترفض تفسير الواقع كما يتبدى للعيان ·

## سادسا : مشكلة الموضوعية فى علم الاجتماع

هذا هو مفهوم المعرفة العلمية الذى أثار بارسونز بناء عليه مسألة العلاقة بين علم الاجتماع والقيم ، وقبل أن تصبح هذه المشكلة محـــل نقاش مستفيض فى علم الاجتماع الامريكى بوقت طويل · فقد كان بارسونز ـ الذى تأثرت آراؤه تأثرا بالغا بماكس فيبر ـ يعتقد أن هناك عـلاقات معقدة ـ بعضها مستقل وبعضها الآخر متبادل ـ بين علم الاجتماع كفرع من فروع المعرفة العلمية وبين قيم عالم الاجتماع الخاصة(٢٧) ·

ويتطلب البحث العلمى ـ بادىء ذى بدء ـ أن يلتزم البـــاحث بمجموعة من القيم ـ وهى قيم مجتمع العلم ، التى يمكن النظر اليهـــا فى حد ذاتها على أنها ثقافة فرعية · فلا أحد يستطيع أن ينكر أن المجتمع العلمى يشتمل على اخلاقيات خاصة يجب أن يلزم الباحث بها نفســـه فى أدائه لانشطته كباحث · فيجب عليه ـ على سبيل المثال ـ أن يلتزم بأولوية الصدق والشرف الفكرى فى بحثه · كما يجب عليه أيضـا أن يلتزم بقواعد معينة للمنهج العلمى · ويعـــد استدماج هذه الاخلاقيات أحد العمليات الأساسية فى تكوين العالم · كما أنه أحـــد العمليـــات الأساسية أيضا فى صياغة العلم والجمعيات والمؤسسات العلمية داخل نظم ، وبنفس القـدر فى المعامل وفى معـاهد البحث · وتكون عمليـة استدماج الاخلاقيات العلمية وعملية صوغها داخل اطار نظامى الأساس الأول والرئيسى لاستقلال البحث العلمى عن القيم الأخرى الموجودة فى المجتمع · وفى هذه الحالة فان على الباحث أن يلتزم بأن يعطى ـ فى

عمله المهنى ـ أولوية لقيم المجتمع العلمى على كل القيم الأخرى الموجودة فى المجتمع · ويمكن أن يؤدى ذلك بالباحث الى أن يتخلى عن بلده ، أو حتى بحثه ، من أجل أن يحمى حريته كعالم · وباختصار فان هنـــاك مسافة عقلية معينة توجد بين ما يتعلق بالعالم الثقافى للعلم وما يتعلق بالمجتمع · وتعتبر هذه المسافة هامة فى العلوم الاجتماعية ، لأنهـــا الأساس الأول لامكانية قيـام موضوعية فى هـــذه العلوم · حقيقة أن الموضوعية نسبيه دائما ، ولكنها شىء يرغب فيه البـــاحث فى العلوم الاجتماعية دائما ، سواء فيما يتعلق بدراســـة مجتمعه أو أى مجتمع آخـــر ·

وهكذا نجد أن العلم يسعى فى هذا المجال الى أن يكون مستقلا عن قيم المجتمع ، ولكن يبقى مجال آخر تكون فيه العلاقة بين العلم والمجتمع متبادلة · فاختيار المشكلات التى تهم العالم ـ خاصة العالم الباحث فى العلوم الاجتماعية ـ دائما ما تتأثر بقيمه الخاصة وبقيم مجتمعه الذى يعد جزءا منه · فالباحث فى العلم ينتمى لحقبة تاريخية معينة ، ولحضارة بعينها ، ولكل أنواع الجماعات · وكل هذه الأشياء تترك أثرها عليـــه وتستمر فى تشكيل مفاهيمه الذاتية كمواطن وككائن بشرى · فالعـــالم لا يستطيع أن ينفصل عن كل هذه الروابط الاجتماعية والثقـــافية التى تربطه بمجتمعه وبالجماعات الاجتماعية المختلفة · كمـــا أنه ليس من الضرورى وليس من المفضل أن ينفصل عن هذه الروابط الاجتماعية ، لأنه عادة ما ينشق من الاطار الاجتماعى الذى يعيش فيه القيم والأهداف التى يقوم عليها اهتمامه ـ ودافعيته ـ بالبحث الذى يجريه ·

وبالرغم من أن القيم تتدخل فى اختيار مشكلات البحث ، فانهـــا لا يجب أن تتدخل فى البحث ذاته · فالبحث يجب أن يوجه فقط من خلال قواعد المنهج العلمى التى يلتزم بها الباحث · فهذه القواعد تســـاعده على أن يحمى نفسه ـ الى حد ما ـ من أحكامه القيمية الخاصة التى يكون لها تأثير كبير على أحكامه التى يقررها عن الواقع · وبهذه الطريقة تساعد قوانين المنهج العلمى على تأكيد الحقيقة التى مؤداها أن عمـــل العالم يكون متحررا نسبيا من القيم ، غير انه لا يستطيع أن يمنع القيم

التى دفعته الى اختيار عمله فى البداية من أن تستمر فى دفعه لاكماله ٠ لقد اعتقد بارسونز اعتقادا قويا أن هذه الموضوعية ، التى يراها على انها نوع من المسافة العقلية بين العالم وبين ما يدرسه ، شرط ضرورى لكى يحتل العلم مكانة مرموقة فى المجتمع الحديث ٠

ومع ذلك فان الموضوعية العلمية لا تحول دون وجود علاقة أخرى متبادلة بين القيم والبحث العلمى ، وهى علاقة خاصة بالعلوم الاجتماعية فقط ٠ فمادام الباحث يدرس البشر ، فانه من الضرورى أن يعرف قيم الجماعات أو الأفراد الذين يدرسهم ٠ ويعتقد بارسونز أن منهج « الفهم التأويلى » verstehen عند ماكس فيبر ما هو الا « شكل من أشكال التواصل » ؛ فاذا كان الباحث راغبا فى فهم دافعية الافراد الذين يدرسهم وأفعالهم ، فان عليه أن يشارك فى خبرة هؤلاء الأفراد ٠ ولكن يجب أن تكون هذه المشاركة محدودة كما أكد بارسونز : محدودة بمعنى أن الاتصال « بين الباحث والجماعة » يمكن أن يقوم على قيم بعينها ، دون أن يستوعب الباحث الثقافة برمتها ودون أن يشارك فى نشاط المجتمع كله ؛ وان التزام الباحث بالاطار الثقافى للعلم يجبره على أن يحافظ على المسافة العقلية بينه وبين قيم الجماعة التى يدرسها ٠

وبناء على ذلك بامكاننا أن نرى أن بارسونز لا ينكر أن القيم الاجتماعية تلعب دورا جزئيا فى البحث العلمى ، وخاصة فى العلوم الاجتماعية ٠ ولكنه أقر منذ البداية وجود ثقافة علمية فرعية علمية تعزل الباحث ، وتجعله مستقلا وتمنحه احساسا بالالتزام ٠ وفى اعتقاد بارسونز أن عالم الاجتماع يجب أن يمنع نفسه من أن ينخرط فى الثقافة العامة لمجتمعه ٠ ان هذا التوازن هو الثمن الذى يجب أن يدفعه عالم الاجتماع اذا ما أراد أن يكون عالما ٠ فاذا كان عالم الاجتماع يعيش فى حضارة معينة لها تاريخ معين ، فانه يلتزم أيضا بثقافة فرعية تفرض عليه قيما علمية ، وضروبا من الفكر والنظام العقلى ، وتمنحه هذه الأشياء بدورها قدرا من التحفظ والتكتم ٠

· ان هذا الانفصال هو أساس الموضوعية ، حتى وان كانت الموضوعية التى يسعى اليهـا العـالم موضوعية نسبية ؛ كما انه مصـدر الاحترام والاكبار بالنسبة للعالم · ويبرر هذه المكانة الزهد الفكرى الذى يفرضه العالم على نفسه · فالعلم عند بارسونز هو مهنة vocation بأقوى معانى الكلمة ، وأعتقد انه يحمل الدليل على هذه المهنة خلال حياته ·

## الحواشى

(١) عرض بارسونز لسيرته الذاتية وللخطوط العامة لتطوره للفكرى فى المصدر التالى :
"On Building Social System Theory : A Personal History". **Daedalus**, 994, 1970. PP. 826 — 81.

(٢) أنظر :
"Capitalism" in Recent German Literature : Sombart and Weber", **Journal of Political Economy**, 36, 6, 1928, PP. 641 - 61 and 37, 1, 1929, PP. 31 - 51.

(٣) شرح بارسونز هدف هذه التجربة ونتائجها بالنسبة للتدريس والبحث فى العلوم الاجتماعية فى مقاله التالى :
"Graduate Training in Social Relations at Harverd", **Journal of General Education**, 5, 1951, PP. 149 - 57.

ومع ذلك لم ينتشر هذا التجديد فى كل مكان كما توقع بارسونز وزملاؤه .

(٤) قدم بارسونز انطباعه عن زيارته للاتحاد السوفيتى فى مقاله التالى :
"An American Impression of Sociology in The Soviet Union" **American Sociological Review**, 30, 1, 1965, PP. 121 -5.

(٥) أنظر المقال التالى :ـ
"Wants and Activities in Marshal" **Quarterly Journal of Economics**, 46, 2, 1932, PP. 316 - 47.

(٦) أنظر :
L. J. Henderson, **Pareto's General Sociology : A Physiologist's Interpretation** (Cambridge, Harvard University Press, 1935).

وانظر ايضا :
Bernard Barber (ed.) L. J. **Henderson on The Social System** (Chicago, Chicago University Press, 1970).

(٧) أنظر :
Talcott Parsons, "Pareto" in **Encylopedia of Social Sciences**, 1933, Vol. 2. PP. 576 - 8; "Pareto's Central Analytical Scheme" **Journal of Social Philosophy**, 1, 3, 1936, PP. 244 - 62.

(٨) أنظر المقال التالى :
"On Building Social System Theory : A Personal History" **op. cit.**, PP. 828 - 9.

(٩) انظر بصفة خاصة المقال التالى :
Talcott Parsons, "Durkheim's Contribution to the Theory of Integration of Social Systems" in his **Sociological Theory and Modern Society** (1967) Chapter I.

(١٠) اكتسب « المذهب الوضعى » Positivism معانى كثيرة ، والمعنى الذى كان يميل اليه بارسونز يقترب الى حد ما من وضعية كونت ، الذى اكد بشدة على دور « الذاتيـة » انظر :
Marvin Harris, **The Rise of Anthropological Theory**, (New York, Thomas Y. Crowell Co., 1968) Chapter 18.

وانظر أيضا المناقشة التى عقدها نوربرت ايلاز N. Elias عن كونت فى :
Norbert Elias, **Was ist Soziologis?** (München, Juventa Verlage, 1970) (Chapter 1).

وعندما كان بارسونز يتحدث عن الوضعية فانه كان يحمل فى ذهنه صورة الأمبريقية الفجة او حتى السلوكية .

(١١) عن مدرسة شيكاغو والدور الذى لعبه فى تاسيسها كل من بارك وبيرجس انظر على وجه الخصوص المصدر التالى
R. E. L. Faris, **Chicago Sociology, 1920 - 32** (San Francisco, Chandler Publishing Company, 1967).

(١٢) انظر :
R. E. Park, **Race and Culture** (Glencoe, III., Free Press, 1950); W. I. Thomas and F. Znaniecki, **The Polish Peasant in Europe and America**. Vol. 1 and 2 (Chicago, Chicago University Press, 1918), Vol. 3 - 5 (Boston, Richard D. Badger, 1920); Lewis Wirth, **The Ghetto** (Chicago, University of Chicago Press, 1928); E. Franklin Frazier, **The Negro Family in The United States** (Chicago, University of Chicago Press, 1939); Everett C. and Helen M. Hughes, **Where Peoples Meet: Recial and Ethnic Frontiers**, III., Free Press, 1952).

(١٣) انظر :
E. H. Sutherland, **The Professional Thief** (Chicago, University of Chicago Press, 1937) and **White Collar Crime** (New York, Druden, 1949); F. M. Thrasher, **The Gang** (Chicago, University of Chicago Press, 2nd ed. 1936); R. E. L. Faris and H. W. Dunhan, **Mental Disorders in urban Areas** (Chicago, University of Chicago Press, 1939); C. R. Shaw and H. D. McKay, **Social Factors in Juvenile Delinquency**, (Washington, US Printing Office, 1939) and **Juvenile Delinquency and Urban Areas** (Chicago, University of Chicago Press, 1942).

(١٤) لخص وارنر بنفسه المجلدات الخمسة التى تعرف بسلسلة دراسات اليانكى سيتى تحت عنوان :
Yankee City (New York, Yale University Press, 1963).

(١٥) انظر
Robert S. Lynd and Helen M. Lynd, **Middletown : A Study in American Middle-Town in Transition** (New York, Harcourt, Brace and World, 1929); Followed by **Middletown in Transition : A Study in Cultural Conflicts** (New York, Harcourt, Brace, and Wordl, 1937).

(١٦) انظر :
A. Davis Burleigt and Marry Gardnor, **Deep South** (Chicago, Uni of Chicago Press, 1941).

(١٧) انظر :
James West, **Plainville, USA** (New York, Columbia Uni Press, 1945).

(١٨) انظر :
W. Focte Whyte, **Street Corner Society** (Chicago, Uni of Chicago Press, 1943).

(١٩) انظر
T. Parsons, "Cooley and The Problem of Internalization" in **Cooley and Sociological Analysis** edited by A. J. Reiss Jr. (Ann Arbor, Uni of Michigan Press, 1968). P. 48.

(٢٠) انظر :
W. I. Thomas, **On Social Organization and Social Personality : Selected Papers**, edited with an Introduction by Morris Janowitz (Chicago, Uni of Chicago Press, 1970); C. H. Cooley, **Human Nature and the Social Order** (New York Charles Scribneris Sons, 1902); G. H. Mead, **Mind, Self and Society** (Chicago, Uni of Chicago Press, 1934).

(٢١) ظهر اهم مجلدين من اعمال زمل بالانجليزية تحت عنوان :
**The Sociology of George Simmel**, edited and translated by Hurt H. Wolff (Glencoe, III., Free Press, 1950) and **Conflict and the web of Group Affiliations** Translated by K. H. Wolff and R. Bondix (Glenceo, III., Free Press, 1955).

ولقد حوت مقدمة الكتاب الأول قائمة باعمال زمل ترجمت الى الانجليزية قبل عام ١٩٥٠ الى جانب ببليوجرافيا عن الدراسات الأمريكية عن زمل .

(٢٢) قال جى بيرين Guy Perrin « انه من الصعب ان نجد تصويرا للنزعة الميكانيكية عند باريتو أدق من التصوير الذى قدمه بارسونز » . انظر دراسته بعنوان :

**Sociologie de Pareto** (Paris, Presses Uni de France, 1966) P. 4.

(٢٣) ان استبعاد هؤلاء الباحثين يعد مثارا للدهشة لأن كلا منهم ـ الى جانب باحثين امريكيين آخرين ـ قد سبق الى تأكيد جوانب فى « النظرية الطوعية للفعل » انظر

C. Hinkle, "Atecedents of The Action Orientation in American Sociology before 1935", **American Sociological Review**, 28, 5, 1963, PP. 705 - 15.

(٢٤) انظر :

T. Parsons, "The Distribution of Power in American Society" in his **Politics and Social Structure** (1969) P. 185

(٢٥) انظر بصفة خاصة حول هذا الموضوع :

**The Structure of Social Action** (1937) Chapter 19, especially PP. 728 - 31.

(٢٦) انظر :

R. K. Merton, **Social Theory and Social Structure**, enlarged ed. (New York, Free Press, 1968) Chapter 2.

(٢٧) شرح بارسونز موقفه من هذه المسألة بصفة خاصة فى مقاله التالى :ـ

"Evaluation and Objectivity in Social Science" An Interpretation of Max Weber's Contribution in his **Sociological Theory and Modern Society** (1967) Chapter 3.